

الدرس الثالث العاشر

تفسير سورة الحاقة [١١ : ١٨]

{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)}

ثم أشار الله ﷻ إلى ما كان من أمر نوح وهو مثال خامس، فقال سبحانه: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: ١١]، طغى الماء حين كذب قوم نوح نبيهم، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فما زادهم إلا نفورا، كما سيأتي في سورة نوح: {وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} [نوح: ٧-٩] بذل قصارى جهده ووسعه لكنهم أبوا، فدعا عليهم، {فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ [القمر: ١٠]، انشقت السماء وتفتقت الأرض كأفواه القرب حتى التقى ماء السماء وماء الأرض وطغى الماء حتى بلغ رؤوس الجبال.

{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ} يعني زاد منسوبه وارتفع كما وصف الله بقوله: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} [هود: ٤٢-٤٣].

ما أهون الخلق على الله ﷻ إذا شاء إهلاكهم سخر جند السماوات والأرض بكلمة، يقول للشيء كن فيكون، **{حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}** الجارية هي السفينة التي صنعها نوح ﷺ، **{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُهُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}** [هود: ٣٨]، وقال الله ﷻ، **{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا* وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}** [القمر: ١٤-١٥].

فهذه السفينة التي علم الله ﷻ نوحا صناعتها بقيت عبرة وآية، وكثيرا ما يمتن الله ﷻ بالفلك على الناس جميعا، حتى إن الله ﷻ ذكر الفلك في القرآن ثلاثا وعشرين مرة، وهذا جدير بالتأمل، فهي تجري فوق ظهر الماء، ولولاها ما تمكن الناس من النقلة وقطع البحار والمحيطات والأنهار، وفق موازين فيزيائية (قانون الطفو) يحمل الناس والأثقال الضخمة، أطنان فوق ظهر الماء؛ لأن الله ﷻ ركب الكون على هذه الصفة فتمكن الناس من التواصل والنقلة والتبادل التجاري وغير ذلك.

{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١٢] مرجع الضمير في (نجعلها) و (تعيتها)، إلى سفينة نوح، ويقال أن أوائل هذه الأمة أدركتها لأنها رست على الجودي، وهو جبل لعله في شمال العراق أو جنوب تركيا يقال له الجودي، ويقال، وأستبعد ذلك أن يكون قد بقي آلاف السنين، فتكون تذكرة يعني كيف أن الله تعالى أبقى نسل بني آدم. **{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ}** [الحاقة: ١١] باعتبار أنهم منحدرون من صلب نوح ﷺ، فهم ذريته، كما قال تعالى **{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}** [الصافات: ٧٧]، فهذا الحمل يعني حمل نطفكم في صلب نوح ﷻ حتى إذا استوت على الجودي وهبطوا عاد التكاثر من جديد، فأبونا الأول آدم وأبونا الثاني نوح هذا توجيه صيغة الجمع.

فسفينة نوح عليه السلام فيها عبرة وتذكرة، حيث أغرق الله الأرض بالطوفان ونجى الله تعالى بها المؤمنين، ويحتمل أن يكون المراد جنسها، يعني جنس الفلك، كما قال في سورة يس: **{وَوَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}** [يس: ٤٢]، وكثيراً ما يمتن الله عز وجل بخلق الفلك، فلا مانع من المحملين، **{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً}** أي سفينة نوح بعينها أو جنس السفن والفلك جعلها تذكرة للمتذكرين.

{وَتَعْيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١٢] ليس كل أذن واعية، بعض الآذان واعية صاغية وبعضها مجرد صوان وطبلة ليس إلا! تلتقط الأصوات لكنها لا تتفهم بما تسمعه، فالملقود بالوعي هنا هو التذكر والتعقل والتفهم، لا مجرد إدراك الصوت، فإن الصوت يدركه الإنسان والحيوان والطيور والحشرات، وإنما المراد هنا سماع الوعي، سماع التعقل كما قال ربنا عز وجل: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** [ق: ٣٧].

منافذ العقل العيان والأذنان، فبها يلتقط الإنسان المعلومات فينبغي أن يبصر بنور الله وأن يسمع على هدى من الله، أما مجرد الحاسة التي يشترك فيها المسلم والكافر والبر والفاجر والإنسان والحيوان فلا تغني شيئاً، ولهذا قال الله عز وجل ذاماً وناعيماً على الغافلين، **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}** [الأعراف: ١٧٩].

لأن الأنعام غير مكلفة، فهي تشترك وإياهم في سماع الإدراك وبصر- الإدراك لكنها غير مكلفة، فيعود ذلك حجة عليهم، فالملقود بالسماع هو الذي يحصل به الفهم والتعقل والتذكر والإدكار والازدجار.

ولما ذكر الله تعالى ووصف هذه المشاهد الأرضية التي فيها عبرة للمعتبرين انتقل السياق إلى الحديث عن مشهد أخروي أشد فظاعة وأبلغ دلالة على قدرة الله ﷻ، **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ* وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً* فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}** [الحاقة: ١٣-١٥]، النافخ إسرئيل عليه السلام كما جاء اسمه في الأحاديث الصحيحة، فهو الموكول بحياة الأبدان بعد البعث.

والصور: قرن ينفخ فيه إسرئيل عليه السلام صيحة مدوية.

ذهب بعض المفسرين إلى أن النفخات ثلاث:

النفخة الأولى: نفخة الفزع: **{وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي**

الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} [النمل: ٨٧].

والنفخة الثانية: نفخة الصعق.

والنفخة الثالثة: نفخة البعث. وإلى هذا ذهب ابن كثير -رحمه الله-.

وذهب بعض المفسرين إلى أنها اثنتان، كما دل عليه قول الله ﷻ: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**

فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨].

وهذا هو ظاهر القرآن، وأن نفخة الفزع ونفخة الصعق شيء واحد، فهي فزع

وصعق في آن واحد، فها هنا قال تعالى: **{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}** المراد بها والله

أعلم النفخة الثانية التي يحصل بها البعث، **{وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}**

يعني أن هذه الأرض ترفع وهذه الجبال الثقيلة الصلبة المتجذرة تنزع، ثم بعد ذلك تحط،

فمعنى: دكتا: أي دقتا من الدق، كما قال الله ﷻ: **{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا* فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}**

[الواقعة: ٥-٦].

وقال في آية أخرى: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}** [طه: ١٠٥-١٠٧]، تقع هذه التغيرات الكونية يوم القيامة، أحوال مهولة مخوفة فظيعة، لا يستطيع العقل أن يتصور كيفيتها، لكنه يدرك ما تدل عليه العبارات من المعاني المعهودة في الأذهان.

والملاحظ أن الله ﷻ يعظم من شأن الجبال، حتى لكأنها قسيم للأرض فيخصها بالذكر، كقوله في الآية الأخرى: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ}** [الأحزاب: ٧٢]، **{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا}** [المزمل: ١٤] فالجبال خلق عظيم هائل، سلاسل ضخمة شاهقة، كسلسلة جبال الهمالايا، سلسلة جبال الألب، جبل كلمنجارو وجبال هائلة تعلو عشرات الكيلو مترات شاهقة في السماء، حينما تقف في سفحها تتضاءل وتتصاغر أمام قدرة الله الذي أرساها، فلذلك يخصصها ﷻ بالذكر.

وكثير من الناس لا يأبه لهذه المظاهر، وينسبها للطبيعة وليس له من الطبيعة إلا المشهد الظاهري فقط، لا ينتفع بما وراء الصور ولا يعتبر، ولا يستدل بدلائل الربوبية على عظيم خلق الله وكمال صفاته ﷻ.

{وَاحِدَةٌ} [الحاقة: ١٤] وكلمة واحدة هنا وفي قوله {نفخة واحدة}، تعني لا معقب لها، وليس عليها مزيد هكذا.

{فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الحاقة: ١٥] الواقعة التي كنتم توعدون بها وتكذبون، وتنكرون وتستبعدون باتت واقعة حقاً، وما أقوى عبارات القرآن في إحقاق الحق، تجدها قاطعة، جازمة، حاسمة، ليس فيها تردد، فَيَوْمَئِذٍ ثم لفت انتباههم إلى المشهد العلوي بعد المشهد الأرضي، **{وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}** [الحاقة: ١٦] السماء التي قال الله

عنها في مطلع سورة تبارك: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ - خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}** [الملك: ٣-٤] تلك السماء المحكمة، السقف المرفوع، المبني بأيدٍ الذي نراه صباح مساء، ليل نهار بهذا الإتيان تصبح يوم القيامة واهية مهترئة، كما قال في الآية الأخرى: **{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا}** [النبا: ١٩]، وقال في آية: **{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا}** [الفرقان: ٢٥]، وتبدو، **{وَرُودَةً كَالدَّهَانِ}** [الرحمن: ٣٧].

فيجري للسماء مثل ما يجري للأرض من التغيير والتبديل، **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [إبراهيم: ٤٨].
{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} [الحاقة: ١٦-١٧] الملك اسم جنس للملائكة، والملائكة الكرام لا يحصيهم كثرة إلا خالقهم ﷻ، وقد كانوا سكانها وعمارها، حتى قال النبي ﷺ: «
 إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ
 مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ. لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا
 وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَخَرَجْتُمْ عَلَيَّ، أَوْ إِلَيَّ، الصُّعَدَاتِ
 تَجَارُونَ إِلَيَّ اللَّهُ " قَالَ: فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: "وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْصَدُ" «^(١)، هذا شيء يراه
 النبي ﷺ ويسمعه ولا نراه ولا نسمعه كما قال.

فيوم القيامة يكونون على أرجائها، لأنها تشققت فهم في نواحيها وأطرافها، وقد جاء في حديث فيه مقال عند قول الله تعالى: **{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا}** [الفرقان: ٢٥]. أن السماء الدنيا تنشق فينزل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة

^١ أخرجه الترمذي- (٢٣١٢)، وأحمد- (٢١٥١٥)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
 (٢) تنقلت وسمع لها صوت كصوت أطيظ الرجل إذا ثقل بصاحبه، الرجل الذي يوضع على ظهر البعير، يكون مشدودا بالسيور والجلود، فإذا ثقل بالراكب سمع له صوت، يسمى أطيظ.

السوار بالمعصم، ثم تنشق ثانية فينزل ملائكتها فيحيطون بمن قبلهم حتى الثالثة إلى السابعة، ثم ينزل الرب ﷻ لفصل القضاء بين العباد، وهذا يوافق قوله: **{وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا}** [الفرقان: ٢٥].

وقوله: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** [البقرة: ٢١٠]، **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ}** [الحاقة: ١٧]، له العلو المطلق سبحانه وبحمده، وعرش الرحمن هو أكبر المخلوقات وأعظمها وأجلها وأعلاها، وهو سقف العالم، والرب ﷻ مستو عليه كما قال في ستة مواضع: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}** [الأعراف: ٥٤]، وقال في الموضع السابع: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: ٥]، وهو خلق عظيم القدر هائل الحجم، لا يحيط به وصف إلا ما بلغنا من النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة كقول النبي ﷺ: **(فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)**، فهو سقف الجنة، والله من فوقه، **{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [النحل: ٥٠] وأخبر النبي ﷺ في حديث آخر بأن له قوائم، فقال: **(لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَشَى اللَّهُ)**^(١).

وأصل العرش في اللغة: كرسي الملك كما قال الله: **{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}** [النمل: ٢٣]، لكن العرش المضاف إلى الرب يليق به وهو خلق من خلقه، ولا يجوز تحريف معنى

١ أخرجه البخاري- (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣).

العرش إلى الكناية عن الهيمنة والسيطرة كما وقع لبعض المفسرين، فإن هذا تحريف فاسد، مخالف للغة، مصادم للنصوص.

كيف والله ﷻ يقول: **{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ}**، هل يستقيم أن يقال ويحمل هيمنة ربك وسيطرة ربك ثمانية؟! هذا كله من شؤم المقدمات الفاسدة التي تحمل بعض الناس على تحريف الكلم عن مواضعه تحت دعاوى باطلة، وشبهات فاسدة. والواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يحمل كلام الله على ظاهره اللائق به وألا يتجنى على النصوص بتحريف أو تكييف.

{ثَانِيَةً} [الحاقة: ١٧]، هم حملة العرش، فالعرش له حملة، لا لأن الله يحتاج إليهم، الله غني عن العرش وعن حملته، لكن أراد الله ﷻ أن يظهر عظمتة وعظمة خلقه، حملة العرش ملائكة عظام، لا يستطيع أحد أن يصفهم إلا بما نطقت به النصوص، ومن ذلك حديث جود إسناده ابن كثير رحمه الله أن النبي ﷺ قال: **{أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ}**.

وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يتكلم عن الأمور الغيبية إلا بإذن، وقال تعالى: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}** [غافر: ٧].

ولذلك ينبغي للمؤمنين أن يحبوهم؛ لأنهم يدعون الله لهم ويستغفرون لهم. **{فَوْقَهُمْ}** أي فوق الملائكة الذين في أرجائها، **{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ}** [الحاقة: ١٨]، قال تعالى، **{وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ**

^١ أخرجه أبو داود- (٤٧٢٧).

لَكُمْ مَوْعِدًا { [الكهف: ٤٨]، وقال ﷺ: " يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ: فَأَمَّا عَرَضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرٌ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ "، فهذا العرض لا بد منه. ويتضمن محاسبة الخلائق، فأما الكفار فيقال لهم في العرض: { **أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** } [الأنعام: ٢٢]، { **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ** } [القصص: ٦٦]، ولا جواب لهم، كل يتبرأ من معبوده، يلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم ببعض، فلا عذر لهم، فلذلك يلقون في النار. وأما المؤمنون فلهم نوعان من المحاسبة، عرض ومناقشة، فأما العرض فهو الذي دل عليه حديث ابن عمر، قال النبي ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ** »^١، ما أسعده! ما أهناه حينما يقول له الرب الرحيم ذلك، هذا السعيد المعافي، هذا الناجي الذي زحزح عن النار وأدخل الجنة وفاز.

وأما النوع الثاني من المحاسبة فهو الذي يتضمن مناقشة وتدقيقاً في الحساب، قال ﷺ: « **مَنْ حُوسِبَ عُذْبٌ** » **قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوْلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } [الانشقاق: ٨] قَالَتْ: فَقَالَ: " إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرُضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ "،**^٢ أي تتخطفه الكلاليب ويقع في النار ويعذب بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة، فيخرج بشفاعة الشافعين أو برحمة أرحم الراحمين.

^١ أخرجه أحمد- (١٩٧١٥)، وابن ماجه- (٤٢٧٧).

^٢ أخرجه البخاري- (٢٤٤١).

^٣ أخرجه البخاري- (١٠٣)، ومسلم- (٢٨٧٦).

{ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ } [الحاقة: ١٨]، كيف يخفون على الله وقد أخرجهم من قبورهم حفاة عراة غرلا بهما، فهم مكشوفون بدنيا ونفسيا، لا يخفى على الله منهم خافية، حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلا غير مختونين، كما بدأنا أول خلق نعيده. بهما، ليس معهم شيء، وكذلك أيضا لا يمكن أن يكذبوا على الله ﷻ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " مِنْ مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي- إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَيْهِ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انطقي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُحَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُ "¹.

الفوائد المستفادة:

الفائدة الأولى: صدق تحقق الساعة، وتعظيم شأنها.

الفائدة الثانية: أن أسماء الساعة واليوم الآخر والقيامة أعلام وأوصاف.

الفائدة الثالثة: تكذيب الأمم السابقة بالساعة، وأن ذلك سبب تعجيل هلاكهم.

الفائدة الرابعة: الإشارة إلى أسلوب من أساليب القرآن وهو أسلوب الطي والنشر-

المرتب والمشوش كما يقول أهل البيان، تأملوا أسلوب الطي والنشر مثلا قال الله في هذه

السورة: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ } [الحاقة: ٤]، هذا طي، ثم نشر فقال، { فَأَمَّا ثَمُودُ

فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة: ٥-٦]، وجاء مرتبًا،

لأنه قدم ثمود على عاد، فلما نشر بدأ بثمود ثم عاد.

¹ أخرجه مسلم- (٢٩٦٩).

لكن في قول الله ﷻ: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ}** [آل عمران: ١٠٦]، طي ونشر- مشوش يعني غير مرتب.

الفائدة الخامسة: تنوع العقوبة والإهلاك بما يستحقه المكذبون، فمنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم، ومنهم، يعذب الله ﷻ بما شاء قال تعالى: **{فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** [العنكبوت: ٤٠].

الفائدة السادسة: البسط والإيجاز في القرآن الكريم.

الفائدة السابعة: بلاغة التشبيه في القرآن وقوة دلالاته.

مع أن العرب كانوا يحتفون بالمعلقات ويعلقونها في جوف الكعبة، لكن جاءهم شيء لم يكن لهم به طاقة، وأخضعهم بيانه.

حتى أنهم يتذوقون ذلك، ويأتون إلى النبي ﷺ يستمعون إلى قراءته، ويقع بعضهم على بعض ويقول الله: **{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}** [الأنعام: ٢٦]، ومما يتعجب منه البلغاء والفصحاء قول الله ﷻ في سورة يوسف: **{فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا}** [يوسف: ٨٠]، انظر قلة الكلمات وما تحملها من الصور والمعاني.

الفائدة الثامنة: هوان الخلق على الله وكمال قدرته عليهم.

الفائدة التاسعة: شدة عذاب الله وعظيم أخذه.

الفائدة العاشرة: شؤم العصيان وتكذيب الرسل، وأن التكذيب بأحدهم تكذيب بجمعهم، فلما عصوا رسلهم وقعت بهم المثالات.

الفائدة الحادية عشرة: تسخير الله تعالى للقوى الطبيعية بما تقتضيه مشيئته نفعا وضرا ومثوبة وعقوبة، فالريح أحيانا تكون نصرا وهلاكاً، قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ بِالدَّبُورِ**»، تأمل الماء كيف يكون بركة ورواء للأرض وتارة يكون طوفانا وإغراقا، كل ذلك بيد الله.

الفائدة الثانية عشرة: امتنان الله تعالى بالفلك وتكرار ذكره في القرآن مما يحمل المؤمن على أن يتملى في هذه الظاهرة العجيبة، ذكر الله الفلك على الأقل ثلاثة وعشرين مرة في القرآن.

الفائدة الثالثة عشرة: أهمية الوعي والإصغاء والتعقل للمواعظ والذكرى.

الفائدة الرابعة عشرة: إثبات الصور والنفخ فيه، وعدد النفخات.

الفائدة الخامسة عشرة: تعظيم الجبال في القرآن وذكرها قسيما للسموات والأرض.

الفائدة السادسة عشرة: صدق وقوع الساعة.

الفائدة السابعة عشرة: بيان أحوال الساعة في السموات والأرض في العالم السفلي

والعالم العلوي.

الفائدة الثامنة عشرة: إثبات الملائكة الكرام، يجب أن نؤمن بالملائكة وأنهم عالم غيبي

خلقهم الله من نور وسخرهم لطاعته وتسبيحه، **{وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ**

الْمُسَبِّحُونَ} [الصفات: ١٦٥-١٦٦].

^١ أخرجه البخاري- (١٠٣٥)، ومسلم- (٩٠٠)،

الفائدة التاسعة عشرة: إثبات عرش الرحمن، وأنه خلق عظيم، وإثبات علو الله تعالى عليه.

الفائدة العشرون: الرد على من حرف معنى العرش إلى الهيمنة والسيطرة وغير ذلك من المعاني المجازية.

الفائدة الحادية والعشرون: إثبات العرض وأنواعه.

الفائدة الثانية والعشرون: صفة الحشر، وانكشاف الخلق لله تعالى خالقهم ظاهرا بأبدانهم وباطنا بقلوبهم.